أثر الصبر في بناء النفس الإنسانية

إنتظار خضير بوهان **زينب خضير بوهان**

Entidar٢٢.١٩٦٤@gmail.com zainabalkurashe@gmail.com

المديرية العامة لتربية النجف الاشرف

الملخص:

إنَّ للصبر معنى لغوياً عاماً يمكن ان ينطبق على مفهوم الصبر بالمعاني القرآني او على مفهوم الصبر بالمعاني المضادة، الا ان المعنى الاصطلاحي للصبر اصبح خاصاً بمعناه القرآني، وهو يشكل العمود الفقري للتك؟؟ الشرعية في الاسلام، كما انه ذو مركزية خاصة في بناء الذات المسلم.تمتع مفهوم الصبر بأهمية محورية في القرآن الكريم بحيث تم ذكر الصبر وموارد اشتقاقاته في اكثر من سبعين مورد، واكثرهم يشير إلى معناه الاصطلاحي في الاسلام، وتمت صيغة المفهوم بحيث تمت نسبته إلى الانبياء اولي العزم والصالحين من اتباعهم بحيث يكون العلة التامة في بلوغهم المراتب العليا التي استحقوا عليها ان يقوم بتمجيدهم القرآن. وردت مشتقات مادة الصبر في السنة النبوية الشريفة وروايات اهل البيت (عليهم السلام) بكثرة كاثرة دلت على أهمية هذا المفهوم في بناء الذات الاسلامية وتفعيل منظومة التشريعات الالهية في الحياة بما ينعكس ايجاباً على حياة الفرد المسلم والمجتمعات الاسلامية خلال المسيرة التكاملية في التاريخ. للصبر أقسام ثلاثة ذكرها العلماء، هي: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المصيبة. للصبر فوائد جمة، منها ما ينعكس على الذات الاسلامية بالمستوى الفردي، ومنها ما ينعكس على الذات الاسلامية في المستوى الاجتماعي، وتم الحديث عن المستويين معاً خلال مسيرة البحث.

الكلمات المفتاحية: (الصبر، اقسام الصبر، الصبر في القران الكريم، فوائد الصبر).

The impact of patience in building the human psyche

'iintizar khudayr buhan **zaynab khudir buhan**

Directorate General of Education Najaf

Abstract:

Patience has a general linguistic meaning applicable to both the Qur'anic and opposite meanings of patience. However, the idiomatic meaning of patience has become specific to its Qur'anic meaning, and it is the foundational principle. In Islam, legitimacy plays a central role in the formation of the Muslim personality. Patience is of paramount importance in the Qur'an. More than seventy sources mention patience and its derivations, the majority of which refer to its idiomatic meaning in Islam. They

merited to be praised in the Quran. In the honourable Sunnah of the Prophet and the narrations of Ahl al-Bayt (peace be upon them), patience's derivatives were mentioned in great abundance, indicating the significance of this concept in building the Islamic self and activating the system of divine legislation in life, which positively reflects on the life of the Muslim individual and Islamic societies during the integrative march of history. Scholars have identified three categories of patience: patience in obedience, fortitude in averting disobedience, and patience in confronting disasters. Patience has numerous advantages, some of which are reflected on the Islamic self at the individual level, while others are reflected on the Islamic self at the social level; both levels were discussed concurrently throughout the research process.

Keywords: (Patience, Types of Patience, Patience in the Holy Qur'an, Advantages of Qur'an).

المقدمة:

الحديث عن الصبر هو الحديث عن العمود الفقري للتعاليم الاسلامية، وهو حجر الزاوية الأساس الذي تستند إليه جميع التكاليف العبادية الفردية والاجتماعية، فلا معنى للحديث عن اي تكليف عبادي دون إعتبار اهمية الصبر فيها مسألة مفروغاً منها، بل أن التفاوت الذي يحصل بين الأفراد والمجتمعات من جهة التكامل المعنوي الذي يمثل الهدف الأيماني المنشود للإسلام، إنما يُعزى إلى هذا الخلق المهم بالذات، لأن جميع هؤلاء الأفراد هم مؤمنون بالله والرسالة الإسلامية، وكذلك المجتمعات الأسلامية باختلاف الأزمنة والأمكنة، هي مجتمعات مؤمنة بالله والرسالة الأسلامية في الواقع، وليس ثمة إمتياز كبير لشخص على آخر أو لمجتمع على آخر من هذه الناحية، إنما يأتي الأمتياز من التفاوت الموجود بين الأفراد والمجتمعات في قوة عزيمة وصبر هؤلاء الأفراد على بلوغ الدرجات العالية في سلَّم التكامل الأنساني، ويقال الشيء نفسه عن المجتمعات فبينما نجد أحد الأفراد ذا عزيمة وصبر كبيرين على تحمل المشاق والأعباء الجسام في سبيل بلوغ أعلى درجة من درجات الطاعة، وتجنب أعلى نسبة من المحرمات والمكروهات التي نهت عنها الشريعة الأسلامية، نجد أفراداً آخرين لا يتمتعون بهذه الخاصية، أو أن بعضهم يتمتع بها على نحو الأجمال، إلّا أنهم يتوانون ويضعفون أحياناً، فينحدرون باتجاه المراتب الأدنى حتى يبلغوا مرحلة الحضيض، وإنقلاب

المصير في بعض الأحيان، وكذلك المجتمعات، فبينما تجد مجتمعاً إسلامياً معيّناً، ذا قوة وإرادة وعزم وصبر في مرحلة تاريخية معينة، إستطاع أن يؤسس لنفسه وضعاً سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً مرموقاً، وأن يحقق لنفسه منظومة حقوقية تكفل له ولأفراده أكبر قدر من العدالة وفق ما تتيحه الظروف الموضوعية الممكنة، تجد مجتمعاً آخر يحمل الأيمان نفسه في الظاهر، إلّا أنه لم يخض غمار المصاعب والمشاق التي تمهد الطريق نحو حصول الغاية الأيمانية الواقعية التي توخاها الأسلام، وعلى هذا الأساس، فأن أية حالة من حالات الأنحدار التي تعيشها المجتمعات الأسلامية اليوم، ليس السبب فيها هو ان هذا المجتمع مؤمن أو غير مؤمن كما يتخيل البعض، بل السبب فيها وجود تلك الخاصية المتعلقة بالصبر والعزم والأرادة القوية وعدم وجودها لا أكثر ولا اقل، خذ مثلاً على ذلك العالم الغربي اليوم فانه لم يصبح بهذا المستوى من القوة والمتعة والأزدهار لو لا أن تلك المجتمعات قد عاشت محناً وكواريث يشيب لها رأس الوليد في القرون الخمسة السابقة، وقد ناضلت تلك الشعوب وتحملت مختلف أنواع المآسي في سبيل تجاوز أزماتها وإيجاد الحلول الواقعية لها، ولم تتهيأ لها تلك الحلول خلال سنوات بسيطة، بل خلال مراحل زمنية طويلة كانت الجهود فيها تشهد حالة من التراكم المنتظم، حتى بلغت هذا المستوى المذهل من التطور والتقدم على صعيد العلم والسياسة والأقتصاد في هذا الزمان.

إن للصبر في حياة الإنسان حتى بغض النظر عن البعد الأيماني الأسلامي أهمية خاصة يعرفها كل من خاض غمار الحياة وجربها طويلاً، فمن ذاالذي لا يسلّم نظريا بأهمية الصبر وأثره في تحقيق النجاحات المتتالية للفرد والمجتمع، فينصح الآخرين به حتى لو كان هو مقصرا في هذا الجانب، بيد أن الصبر في المجال الأسلامي ينتج بالتأكيد الثمار الحسنة على المستويين القريب والبعيد، لأنه يجعل نفسه في اطار مجموعة من التعاليم التي تتكفل فعلا بتنظيم حياة الفرد والمجتمع تنظيماً يتكفل له بالسعادة في الدارين، خلافا للصبر الذي يمكن أن يقوم المرء بتفعيله في إطار مجموعة من المطامع التي لا تقع بالضرورة في طريق تحقيق هذه الأهداف، وهذا فرق هام بين المفهوم القرآني الخاص بالصبر، والمفهومات الأخرى التي نقوم نحن بصياغتها أحياناً، بعيداً عن الأهتداء بهدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعاليم أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الأول

«منزلة الصبر في القرآن الكريم والسنة الشريفة»

المبحث الأول: الصبر لغةً وإصطلاحاً

الصبر لغة: الحبس والمنع، وهو ضدّ الجزع، ويقال: صبر صبراً: وتجلَّد ولم يجزع، وصبر: انتظر، وصبّر نفسه: حبسها وضبطها وصبر فلاناً:

حبسه، وصبرت صبراً: حبست النفس عن الجزع وسُمّي الصوم صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح. (ابن منظور، ١٤١٤هـ:)

ومعنى الصبر في الأصطلاح: هو خُلُقُ فاضل من أخلاق النفس يمنع صاحبه من فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يجمل، وهو من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها. (الجوزية، ١٤٢٩هـ ٢٧).

وهذه القوة تمّكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمّل المتاعب والمشاق والآلام. (حبنكه، : ٢٠٥)

وقال الجرجاني في التعريفات: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله. (الجرجاني، ٨١٦هـ: ١٣١)

وقيل الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه (بن المفضل، ٥٦٥هـ: ٤٧٤) ، وقريب منه تعريف ابن القيم للصبر بانه: ثبات القلب على الاحكام القدرية والشرعية. (الجوزية، ٧٥١هـ: ٢٤١).

المبحث الثاني: منزلة الصبر في القرآن الكريم

ان المتأمل في كتاب الله العزيز يصدمه هذا العدد الهائل من الآيات القرآنية التي تتحدث عن مكانة الصبر ومركزيته في التعاليم الاسلامية، إن الجانب النظري من الإيمان تتكفل ببيانه الآيات القرآنية ذات المضمون الحجاجي والكلامي والفلسفي الخ، أما الجانب العملي من الشريعة، فإن الذي يتكفل بأدائه على أفضل وجه إنما هو الصبر الذي يركز عليه القرآن الكريم تركيز الافتا، وما ذلك آلا لأن طاعة الله حق طاعته والاجتناب عن نواهيه والمنكرات التي شجبتها الشريعة الاسلامية، لا يمكن لهما أن يتما على الاطلاق دون أن يتسلح الإنسان المؤمن بالصبر، ونحن هنا

ذاكرون لمجموعة من الايات القرآنية التي تحدثت عن قيمة الصبر في مختلف السياقات القرانية مع بيان المعنى الاجمالي لها قدر الامكان: (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٥٢) .

قال تعالى: « وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (القرآن الكريم) وفي الآية المباركة اشارة واضحة إلى مسألتين:

١. ان الحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي لا يمكن لها ان تستقيم وان تبلغ مستوياتها التفاعلية والتواصلية بما يحقق الازدهار للمجتمع الاسلامي الا بأن يكون أفراد هذا المجتمع متسامحين فيما بينهم، غفارين للأخطاء والهفوات التي تصدر من بعضهم في حق البعض الاخر، وهي قيمة لا يمكن لها ان توجد الا بأن يتحلى المرء بطاقة هائلة من الصبر، فلن تجد إنسانا جازعاً متأففاً، يمكن له ان يغفر تلك الاخطاء والهفوات ويتجاوزها إلى حالة مثالية جديدة بعد المغفرة.

٢. لم يمدح الله سبحانه قيمة الصبر وقيمة المغفرة المترتبة عليها مدحاً عادياً، بل جعل ذلك من «عزم الامور» أي من أهمها وأفضلها على الاطلاق لما تتمتع به من محورية ومركزية في إقامة المجتمع الاسلامي المنشود على أساس ايمانية صحيحة يريدها الإسلام.

(فضل الله، ٢٠٠٧م: ٢١١)

قال تعالى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» (القرآن الكريم)، ويمكن ربط معنى هذه الاية بما قلناه عن الاية السابقة لان الاية في سياقها الحالي تشير إلى اهمية الصبر من منطلق انه الخاصية الاسلامية التي ميزت اولي العزم من الرسل، وهم الانبياء الخمسة الذين صدعوا بالرسالات، وهذا يشعر ايضاً بأن العمل الرسالي ايا كان نوعه لابد لحامله ومؤديه من ان يكون صبوراً إلى درجة بعيدة، بحيث لا يتعب ولا يكل ولايمل، ويداوم على اداء الرسالة حتى لو كانت النتائج لا تتحقق الا بشكل بطيء للغاية، وتلك الخاصية هي التي تميز الرساليين من البشر، وافضلهم على الاطلاق هم الانبياء اولو العزم، واكثر الانبياء اولي العزم صبرا هو خاتمهم وسيدهم (صلّى الله عليه وآله) بطبيعة الحال. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٣٢٠)

وقال تعالى: «سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». (القرآن الكريم) هذه الاية المباركة واضحة الدلالة في ان الجنة مانالها هؤلاء الصالحون الا بالصبر، لان الباء سببية، فتكون العلة

التي اوجبت لهم دخول الجنة منحصرة بها، فالصبر هو السبب المباشر في حصولهم على تلك المرتبه العالية في الأخرة. (الرازي، ٢٠٠٤م: ١٠٦)

وقال تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ» (القرآن الكريم) وفي الآية تأكيد على قيمة الصبر والمغفرة التي اكد عليها القرآن في سياقات قرأنية اخرى، لكن بما ان للصبر منزلة عالية جداً، وهو ذو مراتب متفاوتة علوا وسموا، فإن القرآن جعل حداً للعقوبة، وهي ان يعاقب من ارتكبت في حقه الإساءة بمثل ما عوقب به ولا يزيد عليه والا تحول إلى ظالم، مع فقدانه في هذه الحالة صفة الصابر المحتسب، وهي صفة توجب له إرتفاع الدرجات يوم القيامة بكل تأكيد. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٩٢)

وقال تعالى: «وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ» (القرآن الكريم)، وتتحدث الاية عن فقدان الصبر لمعناه هناك في الاخرة، فالصبر هناك بلا موضوع اساساً، هناك تظهر النتائج، ولا يوجد إمتحان يكون الصبر الة النجاح فيه اساساً، لذلك يدرك الانسان هناك ان لا فائدة من الصبر ولا الجزع، كلاهما فاقدان للأهمية هناك. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ١٢، ٣٣ . ١٦٨)

وقال تعالى: « إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا »(القرآن الكريم)، تشير الآية المباركة إلى ان هناك مفهوماً اصطلاحياً للصبر غير المفهوم القرآني، وهو معاكس في معناه لمعنى الصبر في الاسلام، فالكفار أيضاً يفخرون بأنهم صبروا على عبادتهم للأوثان، الا ان هذا المعنى من الصبر مضافاص إلى انه غير محمود، فإن الذهن لا ينصرف إلى هذا المعنى حين اطلاق لفظ الصبر، بل ينصرف إلى المعنى القرآني المحمود على وجه التحديد. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٨٨)

وقال تعالى: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ» (القرآن الكريم)، ترتب الآية المباركة النصر على الصبر، كما ان فيها اشارة إلى ان التوكل على الله سبحانه لا يعني الانتظار السلبي للنصر والظفر، بل لابد من تهيئة الأسباب ولابد من ان ينخرط الأنسان في العمل الجاد والدؤوب مع الصبر حتى

يتحقق الظفر والأنتصار. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٥٥)

وقال تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ» (القرآن الكريم) في هذه الآية كذلك إشارة إلى أن أي شعب سينتصر في حال الصبر والتصميم على الأنتصار، فالسبب الحصري في إتمام كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل هو الصبر الذي أبدوه في مقاومة الجبروت الفرعوني كما هو واضح. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٧١)

قال تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ»، (القرآن الكريم) في الآية اشارة إلى أن الصبر قد لا يحصل لوجه الله، وهذا المعنى مفهوم بالدلالة الالتزامية طبعاً، فالشرط في الصبر المنتج للنتائج الحسنة هو ان يكون خالصاً لوجه الله الكريم بطبيعة الحال. (الرازي، ٦٠٦هـ: ٥٠)

والايات التي تحدثت عن الصبر جاوزت في عددها السبعين اية، الا اننا نكتفي بهذه الآيات للاشارة إلى الدلالات المهمة للصبر الواردة في القرآن.

المبحث الثالث: منزلة الصبر في السنة النبوية الشريفة وروايات أهل البيت (عليهم السلام)

قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطيَّ حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكن أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء، وعند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى: «مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ» (القرآن الكريم)

فللصبر مكانة أعظم عندما يتعلق الأمر بالأزمنة التي يكثر فيها الانحراف فهذا يدل على عزيمة ثابته وإرادة راسخة عند المؤمن كما هو واضح. (الغزالي، ٥٠٥ هـ: ٨٦)

قال اميرالمؤمنين عليه السلام: إنّك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإنك إن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور (السبزواري، ١٤١٤هـ: ١٣٠).

وقال صلّى الله عليه وآله: «الصبر كنز من كنوز الجنة». لانه يجعل الانسان ذا مقدرة هائلة على

إداء التكاليف بإخلاص كامل لله عزوجل. (الغزالي، ٥٠٥ هـ: ٨٦)

وقال صلّى الله عليه وآله: «في الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال صلّى الله عليه وآله: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس ولا إيمان لمن لا صبر له».

وقال صلّى الله عليه وآله: «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم كما أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام: يا داوود تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي انا الصبور» (المؤلف، السنة: الصفحة).

وقال الرسول صلّى الله عليه وآله: «ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كمال أمره الله تعالى: (انا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها. إلا وفعل الله ذلك» (الغزالي، ٥٠٥هـ: ١٢٦).

. وروي أن المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) قال للحواريين: انكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. (؟؟؟؟)

. روي: اذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الصابرون؟.. فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: إذهبوا إلى الجنة بغير حساب، قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم: أي شيء كانت أعمالكم؟ .. فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معصية الله فيقولون: نعم أجر العاملين.

(بابويه، ٣١٨هـ: ٩٠)

وقال صلّى الله عليه وآله: «سيأتي على الناس: زمان لا ينال الملك فيه الا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغضب والبخل ولا المحبة إلا بإستخراج الدين واتباع الهوى، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه ثواب خمسين صديقاً ممن صدّق بي». (الكليني، ٣٢٩هـ: ٩٠)

وقال صلّى الله عليه وآله: «ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاءٍ في جسمه فيبلغها بذلك». وبهذا يكون التعرض للبلاء نعمة من نعم الله سبحانه شرط ان يكون العبد صابراً عند نزول البلاء. (الغزالي، ٥٠٥هـ: ١٢٨)

وقال صلّى الله عليه وآله: «إذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبد خيراً وأراد أن يصافيه، صبّ عليه

البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وإذا دعاه ثانياً فقال يا رب، قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك إلا تسألني شيئاً إلا اعطيتك أو رفعت لك ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صباً كما كان يصب عليهم البلاء صباً، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب الجزيل! فذلك قول الله تعالى « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» (القرآن الكريم) فيبين هذا الحديث بشكل واضح ان طاقات الانسان الحقيقية ومعدنه الاصيل لا يتضح الا في حالة واحدة وهي تعرضه للامتحانات والابتلاءات، فهي علامة الحب في الحقيقة ولا مجال للإعتراض على الله في ذلك، فقد كان انبياء الله واوصياؤهم أحب الخلق اليه ومع ذلك كانوا اكثر الناس تعرضاً لتلك المحن والابتلاءات. (الغزالي، ٥٠٥هـ: ٨٢)

. سأل النبي صلّى الله عليه وآله جبرائيل عليه السلام ما تفسير الصبر ؟ .. قال: تصبر في الضراء كما تصبر في السراء، وفي الفاقة كما تصبر في الغنى، وفي البلاء كما تصبر في العافية، فلا يشكو حاله عند المخلوق بما يصيبه من البلاء. (بن بابويه، ٣١٨هـ: ٢٦١)

وقال أمير المؤمنين (عيله السلام): «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان» (علي ابن ابي طالب (ع)، ٤٠ هـ:)

فالنجاح قرين الصبر في النهاية مع ضرورة الانتباه إلى ان بعض الغايات لا يتحقق في أمد قصير، كما ان بعضها الآخر من طراز مختلف عما يهتم به بسطاء الناس في العادة، لأنها ذات بعد معنوي الهي وليس ذات بعد مادي دنيوي، كما هو الحال مع قضية الإمام الحسين والشهيد زيد بن علي (عليهما السلام). (المقرم، ١٣٩١هـ: ١٣٣)

عن أبي حمزة الثمالي قال: قال ابوجعفر (عليه السلام): «لما حضرت الوفاة أبي علياً بن الحسين ضمّني إلى صدره وقال: «يابني، أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة . وبما ذكر أنّ أباه أوصاه . يابني، اصبر على الحق وان مرّاً».

(المجلسي، ١١١١هـ: ١٠٧، الريشهري، ١٤٢٢: ص ٦٥٥)

في هذه الرواية الشريفة مجموعة من النقاط يجيء الاشارة إليها بصورة سريعة وبما يناسب المقام:

الاولى: ان الرواية تشير إلى ان الظرف الذي جرت فيه الوصية عصيب للغاية، لأنه يمثل اللحظات القليلة التي سبقت استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وطبعاً في مثل هذه اللحظة يحاول أي شخص ان يستجمع تجاربه وخبراته كلها في عبارات موجزة ويوصي بها ولده الذي يريد له ان يبلغ اعلى درجات الكمال، وان يكمل مسيرته التي بداها ولم يتح له الموت استكمالها فيريد من ولده هذا ان يكمل تلك المسيرة، ولذا فإن الحسين عليه السلام قد جمع خلاصة تجاربه في هذه الوصية والقى بها إلى ولده زين العابدين في كلمات سريعة وعاجلة ومختزلة لأنه كان مشغولاً بالقتال بعد ان قتل جميع اخوته واولاده وابناء عمومته واصحابه وبقي وحده يناجز جيشاً يبلغ تعداده عشرات الالاف، فأي وصية نفيسة هذه اذن، يحاول الحسين عليه السلام ان يجد فرصة ولو بسيطة في هذا الظرف العصيب ليلقي بتلك الوصية لولده الإمام زين العابدين (عليه السلام).

الثانية: تشير الرواية إلى ان مضمون الوصية لأهميته الاستثنائية والعالية هو من الوصايا التي يتوارثها الانبياء والاوصياء فيما بينهم، ويتم التركيز والتشديد عليها في اللحظات الاخيرة من حياة النبي او الوصي الراحل، وهكذا فإن الحسين يبين لولده الإمام زين العابدين (عليه السلام) انه تلقى تلك الوصية من الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته المباركة، ومن المؤكد انها الوصية التي تلقاها من رسول الله بذات الظروف الحافة، ومما لا شك فيه انها الوصية التي كان الانبياء السابقون يعهد بها كل نبي إلى النبي الذي يليه وهكذا.

الثالثة: تشير وصية الإمام الحسين (عليه السلام) إلى أن الغاية الالهية التي استهدفت حصولها لا تحصل في مدة وجيزة، او بصورة مفاجئة، بل تحتاج إلى زمن طويل وتتم بهية مراحل متعاقبة، بل إنها تشير إلى ان هذا الهدف لا يحصل في زمن الإمام زين العابدين نفسه، وان ما سيقومان به هو فقط رسم معالم الطريق الصحيح لهذا المشروع الالهي الهائل الذي تكفل بالتضحية من اجله الائمة الاطهار (عليهم السلام). (القزويني، ١٤١٥ هـ: ٥١٠)

ورد في كتاب فقه الامام الرضا (عليه السلام) نص الحديث السابق المروي عن الحسين (عليه السلام) ولكن بالصياغة الاتية «نروي أن في وصايا الانبياء صلوات الله عليهم اصبروا على الحق وإن كان مراً» وهو يؤكد المعنى الذي اشرنا اليه انفاً من ان في الحديث دلالة واضحة على ان

مضمونه مما توارثه الانبياء والاوصياء عن بعضهم البعض (عليهم السلام) للأهمية القصوى التي يتمتع بها هذا المضمون. (بن بابويه، ٣١٨هـ: ٩٧)

«الفصل الثاني

«أقسام الصبر»

قسم العلماء الصبر الى أقسام ثلاثة هي:

١. الصبر على الطاعة.

٢. الصبر عن المعصية.

٣. الصبر على المصيبة.

ونحن هاهنا سنقوم بدراسة وتوضيح كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة بتفصيل مناسب في ثلاثة مباحث مستلهمين خلال ذلك المواقف الرسالية لأهل البيت المعصومين (عليهم السلام)، لأنهم يمثلون الذروة العالية التي تصلح للأقتداء من خلال التأسي بهم (عليهم السلام).

المبحث الأول: الصبر على الطاعة

من الواضح ان النفس الأنسانية كما أنها تعترف بفطرتها بانها الأنصياع إلى بعض الأوامر والأنتهاء عن بعض النواهي سواء كانت وضعية أم الهية إنما هو واقع في طريق مصلحتها، فانها على الرغم من إعترافها الفطري والنظري بهذه الحقيقة فانها من الناحية العملية تجد صعوبة بالغة في التطبيق، يكاد يكون هذا من البديهيات التي نلاحظها في حياتنا اليومية تقريباً، خذ مثلاً على ذلك المريض فإنه يدرك تماماً إن النصائح التي يقدمها له الطبيب هي ما يجب الألتزام بها لكي يجني الثمرة الموجودة في صحة البدن، الّا أنه سرعان ما يخالفها متذرعاً بشتى الأسباب الواهية التي يعلم هو قبل غيره أنها ليست من الحق في شيء، فتراه يقدم على تناول الأطعمة التي نهاه عنها الطبيب ولا يلتزم بتناول الأدوية التي أخبره الطبيب بضرورة الألتزام بتناولها في أوقات محددة معلومة كل يوم، وما تلك المخالفة الّا بسبب العناء والمشقة التي يصادفها الأنسان عندما تدخل تلك القناعات النظرية والفطرية حيز التطبيق، كذلك قل عن تصرف سائقي المركبات والسيارات في مجال الألتزام أو عدم الألتزام بالأشارات المرورية، فإن كل سائق يعلم بحكم خبرته إن الألتزام بمضمون تلك الأشارات المرورية المنصوبة في الشارع من شأنه إن ينظم عملية السير ويقلل من

نسب الحوادث المرورية التي تهدد حياة الناس بما فيهم بل في مقدمتهم هم بطبيعة الحال، الا انهم مع ذلك يجدون صعوبة نفسية بالغة في الالتزام العملي بها، فتراهم يتضجرون كثيراً من الاشارة الحمراء التي تفرض عليهم الانتظار لدقائق بسيطة، ويضربون عرض الجدار بالأوامر المرورية القاضية بالالتزام بارتداء حزام الامان، مع انهم يعلمون ما له من الفوائد الكبيرة حالا لتعرض لأي حادث مروري، بل يخبرونك هم بشكل تفصيلي عن تلك الفوائد، ان النفس البشرية تميل إلى الراحة والكسل على الرغم من القناعات الموجودة والراسخة في الذهن، والحال نفسه يمكن ان يقال عن التكاليف الالهية التي فرضها الاسلام على البشر، سواء كانت فردية أم جماعية، فالصلاة مثلاً لا تكلف الانسان الا بضع دقائق، الا ان الانسان يجد صعوبة بالغة في الالتزام بمواعيدها، لانها تسلب منه الراحة والدعة ولو لمدة قليلة لا تتجاوز الدقائق المعدودة. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٩٧)

كذلك يعلم المرء ماللصيام من اثر ايجابي على صحة الانسان البدنية والاستقامة المعنوية، الا انه يجد صعوبة بالغة في الالتزام بالصيام خلال تلك الايام المعدودة في شهر رمضان، ويقال الامر نفسه عن الحج إذ فيه من المشاق ما فيه، فالانسان لا يميل إلى الحج مع انه قد يرغب في السفر إلى اقاصي العالم ويتحمل في سبيل ذلك المعاناة، لان الحج يتوجب فيه خلوص النية لله سبحانه وتعالى، ويفسد مع نية السياحة والتجارة والانسان ميال بطبيعة الحال إلى ما يوفر له المتعة والراحة والرابح المادي الملموس لا الربح المعنوي والمؤجل، لكن يجب التشبيه إلى ان الانسان ارتقى في مدارج الكمال المعنوي والالهي انقلبت الحال منه إلى ما يغاير هذه الحالة، بحيث يشعر بالراحة واللذة وهو يؤدي الواجبات الالهية الفردية والاجتماعية، وهذا هو السر في ان عبادة الانبياء والائمة (عليهم السلام) لا تقارن بها اية عبادة اخرى، لان هؤلاء الكمّل يؤدون تلك العبادات:

١. بنية خالصة لله سبحانه، فهم تماهوا في طاعة الله وفنوا فيها إلى درجة لم يعودوا معها يلاحظون شيئاً في اقوالهم وافعالهم وحركاتهم وسكناتهم كلها الا الله تعالى.

٢. ولانهم يجدون الراحة واللذة في تلك العبادة، حتى ورد عن النبي (صلّى الله عليه وآله) انه كان يقول لبلال المؤذن عندما يحين وقت الصلاة «أرحنا يا بلال» فالنبي (صلّى الله عليه وآله) يجد الراحة من تعبه بالصلاة، على العكس منا نحن الذين لم نرتق إلى ولو سلمة واحدة في مدارج الكمال نجد التعب المضني وفقدان الراحة باداء الصلاة وسائر العبادات المفروضة على الفرد

المسلم، اما عن اداء الواجبات الجماعية كالجهاد، فانه ارتقى في نظر الإمام الحسين عليه السلام إلى حالة وجدانية عالية من خلال البيتين الشعريين المأثورين عنه:

تركـت الخَلـق طـراً فـي هواكـا وأيتمـت العيـال لكـي أراكـا

فلـو قطعتنـي فـي الحـب إربـاً لمـا مـال الفـؤاد إلـى سـواكا

وكذلك تتضح هذه الحالة الوجدانية العالية في كلمة السيدة زينب (عليها السلام)، اذ رفعت جدث اخيها الحسين (عليه السلام) وهو مذبوح من الوريد إلى الوريد على رمضاء كربلاء وراحت تخاطب الله سبحانه «اللهم تقبل منها هذا القربان» فتخيل ان استشهاد احب الخلق اليها اخيها الحسين (عليه السلام) وسائر اخوتها وابناء عمومتها وابناء اخيها واصحاب اخيها (عليهم السلام) مع ما يرافق ذلك كله مما هو في انتظارها وانتظار الاطفال والنساء من حالة السبي والقهر، كل ذلك انما هو قليل لرضا الله في نظر هذه السيدة المحمدية العلوية الفاطمية الحسينية الجليلة، فأي جبلٍ من الصبر كانت (عليها السلام) في ذلك اليوم الذي ثكلت فيه الكائنات بالامام الحسين صلوات الله عليه. (أسد حيدر، ١٩٧٤م: ٢٠١)

الفضيلة من الفضائل الخلقية في القرآن والسنة مكانة أرفع ولا أسمى من الصبر فلقد تحدث القرآن عن الصبر في سبعين موضعاً على وجه التقريب، مضافاً إلى ما منحته السنة الشريفة لهذه الفضيلة الخلقية من المكانة اللائقة في مواضع تتدعن الحصر منها، وحري بالصبر ان يحظى بمثل هذا الاهتمام من الكتاب والسنة لانه السلَّم الذي به يرتقى إلى نيل كل فضيلة اخرى، فما سائر الفضائل الخلقية الاشعب متفرعة من هذه الفضيلة الاساسية، قال تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا» (القرآن الكريم) إذ يستفاد من هذه الآية الكريمة ان ان هؤلاء السالكين إلى الله سبحانه ما كان لهم ان يصبحوا ائمة أي قادة ومرشدين لسائر الناس لو لا انهم تحلوا اولاً بالصبر، فكان الصبر وسيلتهم إلى تحصل جميع الفضائل الخلقية الاخرى، وقال سبحانه في بني اسرائيل: « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ...» (القرآن الكريم) فتمام كلمة الله سبحانه الحسنى بحسب نص الاية يقابله الصبر الذي كان عليه القوم الممدوحون في الاية المباركة، اي ان تمام كلمة الله الحسنى بكل ما تحمله من الدلالات الباهرة انما هو في موقع الجزاء

لشرط قد تحقق في هؤلاء القوم وهو الصبر، وقال تعالى: «أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» (القرآن الكريم)، فكانت مضاعفة الأجر لهؤلاء القوم هي جزاء شرط تحقق قبل ذلك وهو صبرهم في مختلف المواقف التي تستدعي الطاعة لله واخلاص العمل له سبحانه، بل ان الجزاء لا يتحدد يعدد معين ويترك الله سبحانه الأمر مفتوحاً لكرمه في المشيئة حيث يقول: « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » (القرآن الكريم) ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: «وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (القرآن الكريم) اما عن الصبر في سوح الوغى من اجل اعلاء كلمة الله سبحانه فإن الله يكافئه بالمدد المادي الحسي الملموس، حيث ينزل ملائكه يقاتلون مع الذين امنوا، قال تعالى: « بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ» (القرآن الكريم) وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى فقال: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» (القرآن الكريم).

لاشك ان هناك موانع داخلية وخارجية تحول دون الوصول إلى الهدف المنشود وتتطلب من الانسان ان يعد العدة لازالة تلك الموانع او التخفيف منها على الاقل ليكون سبيل الوصول إلى تلك الغاية ميسوراً وممكنا، وتتمثل الموانع الداخلية بعوامل الفشل والاحباط وسائر العوامل النفسية السلبية التي تجعل الانسان يصل إلى الراحة على حساب شرف الوصول إلى غايته، كما لو مال الانسان إلى الراحة وهو يعلم ان سبيل النجاة في الاخرة انما هو قيامه بواجباته وتكاليفه الفردية والاجتماعية، او كما لو كان الانسان حريصاً على ان لا ينفق من ماله شيئاً وهو يعلم ان في الانفاق من هذا المال عبر دفعه زكاته وخمسه فضلاً عن التطوع سبيله إلى التكامل وحصوله على المراتب العليا في سلم الكمال الانساني في الدنيا والاخرة، وكما لو انكفأ المرء على ذاته فلم يتصور ان عليه واجباً ما تجاه المجتمع الاسلامي ككل حال السلم والحرب، فيشح نفسه عن الجهاد ولا يجد نفسه مسؤولاً عن شيء يخص هذا المجتمع مقتنعاً بمختلف التبريرات التي لا توفر له المعذرية الحقيقية في هذا الجانب. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ص ٢٢١)

اما الموانع الخارجية فتتمثل بالقوانين والنظم السياسية الظالمة التي تقف حجر عثرة أمام أن يقوم المرء بواجبه الشرعي الكامل في هذا المضمار، كما تتمثل في العديد من العوامل الاخرى التي لا يعتبرها المرء مسؤولاً عن وجودها، بل هي موجودة ومفروضة عليه بشكل قهري، ففي هذه الحالة لا

ينبغي ان يقف المرء مكتوف الايدي أمام تلك الظروف كما لا ينبغي له التخلي عن الصبر على القيام بواجباته في ظل تلك الظروف الخارجية العسيرة ذاتها، ومن هنا فقد ورد في مسيرة الائمة عليهم السلام، وهذا ما يمكن ان نشاهده في صلابة وثبات الرجال العظام الذي صغرا التاريخ، وعلى رأسهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) ومن بعدهم الانبياء واهل الله الذين تحملوا منذ البداية كل الوان العذاب وصنوف الأذى من الطغاة، ومع ذلك انتشرت دعوتهم في كل الأرجاء، وكان لها اثر كبير، ولم يكن ذلك إلا بالصبر الذي أعدوه لمواجهة تلك الموانع والعقبات فأوجد في أنفسهم روحاً لا تهزم وحوّلهم إلى أفراد يتمتعون بصلابة عالية جداً، وكان اعدائهم في الكثير من الموارد يتمتعون بالإمكانات الكبرى، ولكنهم تعبوا وعجزوا، حينما لم يعجزوا هم ولم ينثنوا. (حبنكه، ١٥٦)

كان المتوكل العباسي . هذا الأمبراطور المتجبر . يقول: «لقد أتعبني ابن الرضا»، فكيف أستطاع الإمام الهادي (عليه السلام)، الذي قضى معظم ايام حياته تحت الضغوط التي مارسها عليه المتوكل، أن يُتعب هذا الحاكم المتسلط؟!

حينما يكون أحد المتحاربين ضعيفاً بلحاظ الإمكانيات المادية ويقضي معظم أيامه في السجن والبعد عن الأمن والراحة، ولكن لا يتململ ولا يتعب أمام كل الضغوطات والشوائد، ويستمر رغم كل العوائق والموانع الموجودة على طريقه الذي يتطلب سعياً طويلاً، فمن الطبيعي أن يجعل خصمه تبعاً ومحبطاً، حتى وإن كان هذا الخصم يتمتع بكل الإمكانات العادية والقدرات، وذلك لأنه لا يمتلك روحية الإيمان بالسعي والهدف.

هذه الخاصية العجيبة للصبر التي تجعل الإنسان لا يقبل بالهزيمة. (القريشي، ١٤٣٦هـ: ١٤٢)

المبحث الثاني: الصبر عن المعصية

إن الصبر على الطاعة إن كان يعني الالتزام بأداء الواجبات الدينية من صلاة وصوم وزكاة وخمس وجهاد، على ما فيها من مشقة وعناء ومخالفة لهوى النفس الإنسانية التي تميل إلى الدعة والراحة والجاه والسلطة والبخل وحب البقاء، الا انها في جميع الحالات أخف وطأة من الصبر عن المعصية، لان الصبر على هذه الأخيرة يمثل مقاومة غير عادية للرغبات الملحة التي تميل وتتعلق بها النفس البشرية، مثل غريزة الجنس، هي غريزة ملحة قد لا يقاومها أغلا الكمَّل من الناس، حتى

انها أصبحت واحدة من أخص فضائل نبي مهم جداً من انبياء بني إسرائيل وهو النبي يوسف (عليه السلام) قال تعالى: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (القرآن الكريم) حيث استعصم عن فعل المعصية، لذلك يمكن أن نرى بأم اعيننا أُناس يصومون ويصلون ويحجون ويؤدون الزكاة والخمس، الا إنهم لا يقاومون غريزة الجنس عندما تصادفهم فرصة سانحة، انهم يجدون صعوبة غير عادية في مقاومة هذه الغريزة، وكذلك قد تجد أُناساً يقومون بكل الواجبات الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة وخمس، الا انهم لا يقاومون شهوة السلطة والجاه، وهكذا، ما نريد تقريره هو إن الصبر عن المعصية يمثل الحالة الارقى قياساً إلى الصبر على الطاعة، او حتى الصبر على المصيبة (الشيرازي، ١٠٥٩: ١٢٠)، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: الصبر صبران، صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عما حرّم الله عليك فهذا الحديث صريح...

في تفضيل الصبر عن المعصية على الانواع الاخرى من الصبر، مشعراً بأنه ليس أفضل من الصبر على المصيبة فقط بل هو أفضل من الصبر على الطاعة كذلك. (علي بن ابي طالب (ع)، ٤٠هـ:)

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم: سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغضب والبخل، ولا المحبة إلا بإستخراج الدين وإتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممن صدّق بي» (الكليني، ٣٢٩هـ: ٩٠) ففي هذا الحديث الشريف الذي يرويه الإمام الصادق (عليه السلام) حكاية عن الزمان اللاحق فهو من احاديث الملاحم، ويتحدث فيه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن الحال الذي ستنقلب إليها الامة الاسلامية في الازمنة التي تتلو وفاته، ففي عصر بني أُمية أصبح الحلال هو هكذا، فخلافة النبي (صلّى الله عليه وآله) تحولت إلى ملك عضوض لا ينال الا بالاساليب المعهودة من قتل وتجبر ولا ينال الغنى الا بإتباع اساليب التملق والتزلف من الحاكم المستبد، فلا ينطق أحد بكلمة حق أمام سلطان جائر لأن ضريبة ذلك هو الاقصاء والتهميش والفقر مضافاً إلى ما يعانيه من قرارات القهر والجور التي تصدر في

حقه، ومن البديهي في اجواء مثل هذه ان لا يكون محبوباً الا ذلك الانسان الساكت عن الحق الناطق بكل ما يحرف الحقائق في مصلحة السلطان، أما الناطق بالحق فله البغض والرفض والبعد عن كل مواطن العيش الرغيد، وهنا يأتي الوعد الالهي على لسان النبي الاعظم (صلّى الله عليه وآله وسلم) بأن من سار ضد التيار، وقرر تحمل الضرائب الفادحة نتيجة انحيازه إلى الحق وصبر على المكروه، بأن صبر على الفقر لكن هو يستطيع أن يكون غنياً بأن يتبع تلك الاساليب المنحطة لو اراد، وصبر على البغض الموجه اليه وهو قادر على ان يكون متزلفاً ومتملقاً فيحظى بالقرب من السلطان لو شاء، وصبر على الذل وقلة الشأن وهو يقدر ان يتحول إلى إنسان عزيز بعز السلطان لو انه شاء ان يتنازل عن مبادئه السامية، فإن مثل هذا الإنسان ليس له منزلة الصدّيق فقط، بل إن له منزلة خمسين صدِّيقاً، وما ذلك الا لصعوبة الموقف الذي يعانيه مثل هذا الانسان في ظل حكومات الجور والعسف التي ستعقب فترة وفاته (صلّى الله عليه وآله) إلى أزمان طويلة حتى قيام دولة العدل الالهي على يد الامام المهدي (عج). (الصدر، ١٤١٩هـ: ٨٠)

ثم ان التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجاً العزم وهناك الكثير من الروايات التي تثبت هذه الحقيقة، فحينما يسأل السائل الامام (عليه السلام) عن سر توفيقه يجيبه الامام (عليه السلام) (بان ذنوب النهار تمنع الإنسان من قيام الليل). ولابد ان نشير إلى تلك القضية التي اكد عليها العرفانيون، تلك القضية المتعلقة بالتلازم بين مفهومي الصبر والشكر، فالواقع ان الصابر هو الشاكر، ولا فصل بين المفهومين، يقول العلامة محمد مهدي النراقي: «إعلم انه أُختلِفَ في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلامنهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، إذ على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً كما مر في باب الشكر، والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مر من ان الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله . سبحانه. وهذا هو الشكر بعينه، لأن التعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس إليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية، وأيضاً، توفيق الصبر والمعصية من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر وبالعكس.

(النراقي، ١٢٠٩هـ: ٥٢٦)

وبالجملة: لاريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل إتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي، إذا حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، من الثواب الاخروي، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الأخرة، فيشكر على ذلك، فهو لا ينفك عن الشكر، لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضاً من الله، فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة، مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر أيضاً، إذ في انفاق المال وبدله في تحصيل الدين حبس النفس عما تحبه وتميل إليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، وفي البلاء المطلق، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة، كسعادة الآخرة والعلم وحسن الخُلق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضاً. إذ تحصيل السعادة والعلم والاخلاق الفاضلة، والابقاء عليها لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه، مع ان الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران، وهو الصبر عن المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك. (الحيدري، ٢٠١٠م: ٢٣٣)

المبحث الثالث

الصبر على المصيبة

ان الدنيا دار بالبلاء محفوفة كما بيّن الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بناء على ذلك فإن أية فاجعة أو مصيبة تحصل فيها للأنسان هي من السنن الطبيعية التي جرت عليها الامور في هذه الحياة، فعلى أي إنسان أن يعد نفسه لتلقي مثل هذه المصائب بعزيمة قوية ورباطة جأش راسخة، أما الذي ينهار أمام مصائب الدنيا وحوادث الدهر، فإنه لن يفعل شيئاً يغير من هذه السنة الطبيعية، كما انه يخسر القوة والأرادة والطاقة المعنوية اللازمة لمواصلة السير في طريق تكامله الخاص، كما انه يخسر فرصة في رياضة نفسه على تحمل المسؤوليات الجسام التي لن يكون قادرا على تحملها والنهوض بأعبائها الا أُولئك الذين مروا بتجارب من هذا النوع واجتازوا الامتحان فيها بنجاح، لذا فانك ترى قادرة الأمم هم اكثر الناس تحملاً لمثل هذه المصائب عندما تمر بهم، لأنهم أعدوا أنفسهم سلفاً لتحملها بعد أن مر معظمهم بتجارب قاسية تحملوها واجتازوها بنجاح منقطع النظير، خلافاً لما عليه سواد الناس من الجزع وفقدان الصبر والعزيمة والارادة أمام أي حادث يمكن ان يسبب لهم المعاناة في الحياة. لنضرب مثلاً بأحد الصحابة الأجلاء، فهذا خباب بن الأرت وهو احد المسلمين المضحين، ومن الاوائل الذين آمنوا بالإسلام، وحرموا بسبب إيمانهم من معظم أموالهم وممتلكاتهم، هو نفسه قال: أتيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو متوسد بردَه في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت يا رسول الله ألا تدعوا الله لنا، فقعد وهو محمرٌ وجهه فقال (صلّى الله عليه وآله): «إن كان من كان قبلكم ليُمشّط أحدكم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم او عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فينشق بإثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى الراكب من صغاء إلى حضر موت لا يخاف الا الله عزوجل والذئب على غنمه. (المجلسي، ١١١١هـ: ٢٢٠)

هذه الحالة التي حكاها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن الأمم المؤمنة التي سبقت الاسلام، هي الحالة التي ارادها الله تعالى أن توجد بحق أحب الخلق إليه في زمانه، وهو الحسين بن علي (عليه السلام)، لم يشأ الله ان يوجد في الأمم السابقة من هو اكثر تضحية من المسلمين في سبيل دينهم، فضرب لهم مثلاً بالحسين (عليه السلام)، فتقبل ان يكون هذا المثل وزيادة، قتل اولاده، واخوته

وأبناء عمومته واصحابه، وسبيت عياله نساءاً واطفالاً، وهم على أتم ما يكونون استعداداً للتضحية، أما الحسين نفسه، فكان في منتهى الرضا والسعادة بهذا المصير الذي رفعه إلى مستوى أن يكون الأكثر تضحية في سبيل الله على مستوى الخليقة كلها، فكان هو مجال فخر الله على كل ما خلق من أنس وجن وملائكة، ولكن هاهنا شبهة يجب أن نتعرض لها بشيء من التوضيح. (كريم خان، : ٦١)

تفنيد شبهة:

إن كان الصبر على المصيبة محموداً، فلماذا تبدون كل مظاهر الحزن والجزع على الحسين والائمة الطاهرين عليهم السلام، أليس الاولى بكم ان تطبقوا ما تدعون إليه فتصبرون على مصابكم بالحسين (عليه السلام)، أليس هذا هو مقتضى أنسجامكم مع أنفسكم إن كنتم جادين في الدعوة إلى الصبر على المصائب؟ ونحن في جوابنا على الشبهة نقول، نعم ان الصبر على المصيبة مطلوب، الا صبراً واحداً مستثنى من هذه القاعدة، فإن الصبر فيها مذموم، وهو الصبر على المصيبة المتعلقة برسول الله (صلّى الله عليه وآله) والمصائب المتعلقة بالأئمة المعصومين من أبنائه (عليهم السلام)، مضافاً إلى المصيبة بأبيهم علي بن بن أبي طالب (عليه السلام) وهذا هو مقتضى الدلالة الظاهرية للحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي يخاطب فيه الرسول صلّى الله عليه وآله، يقول سلام الله عليه: «إن الصبر لجميل الا عنك وإن الجزع لقبيح الا عليك وإن المصاب بك لجليل وإنه قبلك وبعدك لجلل»(الشيرازي، ١٩٧٠م: ٢٣٥)

المصائب الأختيارية والصبر عليها

إن الصبر على المصائب التي تحصل للإنسان بشكل قهري من الطبيعي ان يكون الإنسان مثاباً عليها إن كانت مصحوبة بالشكر والرضا، كما في الرواية عن اهل البيت (عليهم السلام) قال الصادق عليه السلام: أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام: «انّ خلادة بنت أوس بشّرها بالجنة، وأعلمها أنها قرينتك في الجنة، فأنطلق إليها فقرع الباب عليها، فخرجت وقالت: هل نزل فيّ شيءٌ؟... فقال: نعم، قالت: وما هو؟ ... قال:

إن الله تعالى أوحى إليّ وأخبرني انك قرينتي في الجنة وأن أَبشركِ بالجنة، قالت: أو يكون أسمٌ

وافق اسمي؟... قال: إنك لأنت هي، قالت: يا نبي الله!.. ما أكذبك، ولا والله ما أعرف من نفسي ما وصفتي به.

قال النبي داود عليه السلام: أخبريني عن ضميركِ وسريرتكِ ما هو؟.. قالت: أما هذا فسأخبرك به، أخبرك انه لم يصبني وجعٌ قط نزل بي كائناً ما كان وما نزل ضرٌّ بي وحاجة وجوع كائنا ما كان إلا صبرت عليه، ولم أسأل الله كشفه عني حتى يحوله الله عني إلى العافية والسعة، ولم أطلب بها بدلاً، وشكرت الله عليها وحمدته، فقال داود عليه السلام:

فبهذا بلغتِ ما بلغتِ، ثم قال الصادق عليه السلام: وهذا دين الله الذي ارتضاه للصالحين. (الحميري، ١٤١٣هـ: ٣٩)

او كما قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «الصبر يُظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يُظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة والصبر يدّعيه كلّ أحد، ولا يثبت عنده إلا المخبتون، والجزع يُنكره كل أحد، وهو أبين على المنافقين، لأنّ نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب» (جعفر بن محمد (ع)، ٢٤٨هـ: ١١١).

لكن هناك نوعا آخر من المصائب التي تحصل للإنسان بشكل اختياري، وهو غالباً ما يحصل للأنبياء والاوصياء والرساليين من اتباعهم (عليهم السلام)، فإن هؤلاء العظماء يعلمون ان طريقهم محفوف بالمصائب ومع ذلك يختارون طواعية تحملها برضا تام، ومن راجع السيرة النبوية للرسول الاعظم «صلّى الله عليه وآله وسلم» وسيرة ال البيت (عليهم السلام) يجد الكثير من الامثلة على الصبر في هذا السبيل، فقد تحمل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الكثير من العنت والجور والظلم من قبيلته قريش وسائر العرب وهو يدعوا إلى الدين الجديد، ومع ذلك لا يصادفنا ولو موقف واحد فقد فيه الرسول طاقته على الصبر والتحمل، وحتى مصيبته بولده الحسين (عليه السلام) كان يعلمها منذ البداية، وما كان جازعاً ولا وانيا عن تحمل الامانة، بل استقبل كل ذلك بروح تمتاز بالتسليم المطلق بقضاء الله وقدره، بل اعتبر تلك التضحية منزلة عظيمة حباها به الله عزوجل وهي فعلاً كذلك. (الحيدري، ٢٠١٠م: ٢٣٠)

الفصل الثالث

«الفوائد التي يمكن تحصيلها من خلال التحلي بخلق الصبر»

المبحث الأول: مركزية مفهوم الصبر في التعاليم الأسلامية:

إن للإسلام منظومة تعاليم تتم من خلالها مسيرة التكامل بالنسبة للفرد المسلم والمجتمع الاسلامي على السواء، فالصلاة والصيام والزكاة والخمس والحج والجهاد والخ، كلها اجزاء مهمة يتكامل بعضها مع البعض الاخر في تكوين هذه المنظومة، الا انها جميعاً لن تستطيع اداء عملها بالشكل المطلوب منها بحيث تؤدي إلى الغاية الموجودة منها الا بالصبر، ومن هنا فإن للصبر مكانة مركزية في هذه المنظومة أو قل انه المحرك المسؤول عن تشغيل كل هذه الاجزاء التي يتكون منها الجهاز المفاهيمي للإسلام، فمن دون الصبر لا يمكن فهم الفلسفة العميقة لهذه التعاليم، اذ لا معنى للصلاة ما لم تكن مقترنة بالصبر على طاعة الله سبحانه، ولا معنى للصوم ما يكن مقترنا بالصبر كذلك، ويقال الشيء نفسه عن الحج والجهاد من باب اولى، ومن هنا فإن الفرد المسلم والجماعة المسلمة يفقد كلاهما القدرة على مواصلة المسيرة التكاملية من خلال تلك التعاليم من دون ان يكون هذه المحرك سليماً وجاهزاً للعمل بشكل سليم، وهذا هو المعنى الحقيقي للحديث النبوي المأثور «جعل الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد» فكما ان الجسد لا يمكن له ان يؤدي الوظائف الحيوية الموجودة من خلال اجزائه مع فقدان الرأس، فكذلك الإيمان لا يستطيع أن يؤدي وظيفته الحيوية في التكامل المعنوي للفرد والجامعة من دون الصبر. (الصدر، ١٤١٩هـ: ٨٨)

يمكن للجسد ان يستمر في عمله وإداء تلك الوظائف الحيوية مع فقدان بعض الاعضاء كاليد أو الرجل أو العين أو الاذن أو الانف الخ الا إنه لن يستمر في أداء وظائفه الحيوية مع فقدان الرأس بكل تأكيد، حتى لو كانت كل اعضاء الجسد الاخرى سليمة وجاهزة للعمل المتقن فيما لو كان الرأس موجوداً، فكذلك الصبر من الايمان هو بمثابة هذا الرأس بالضبط، فحتى لو كانت الصلاة موجودة والصوم موجودا والحج موجودا والخ، فإن كل ذلك يفقد معناه مع فقدان الصبر، ويصبح وجود تلك المظاهر الشكلية لتلك العبادات كعدمها، اما مع قضية الجهاد فالأمر أشد وضوحاً بالطبع، فلو لم يتمتع المسلمون بطاقة هائلة على الصبر في صدر الإسلام ما كان ممكناً للإسلام

ان ينتشر هذا الانتشار الباهر خلال السنوات اللاحقة ولو لم يصبر المسلمون في معركة بدر ما كان ممكناً لتلك الفئة القليلة أن تنتصر على فئة بلغت عشرة اضعافها مع تفوق واضح في عدة الحرب ولو لم يصبر اصحاب الحسين (عليه السلام) مع امامهم في معركة الطف ما كان ان يتحقق هذا الإنتصار الحسيني الكبير خلال مسيرة التاريخ، ولقد أوضح الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) أثر الصبر في حصول جميع تلك النتائج العظيمة في خطبته القاصعة: «حتى إذا رأى الله جد الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاد فرجاً، فأبدلهم العزّ مكان الذلّ، والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكماً وأئمة أعلاماً، وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الآمال إليه بهم». (ابن ابي الحديد، ٦٥٦هـ: ١٢٨)

المبحث الثاني: الاثار الايجابية للصبر على المستوى الفردي

نتحدث في هذا المقام عن الاثار الايجابية للصبر على الفرد، فنحن نعلم ان الجسد الخامل الذي لم يتعود التمارين الرياضية ليس له قدرة الصعود التي يبديها الجسد الذي تعود تلك التمارين، فيمكن ان يقال ان للصبر قوة التمرين الرياضي للنفس البشرية في مجال مجابهة عوامل الانكسار والهزيمة، والإنسان لا يدرك القوى الكامنة فيه حتى يخوض المواجهات الصعبة التي يُكتشف من خلالها تلك القوة الهائلة فيه على المقاومة والمواجهة، ان كل انسان يحتوي في داخله على قوى عظيمة وهائلة لكنها تحتاج إلى ان تدخل ميدان العمل والامتحان والاختبار، فإذا فُصل الانزواء والابتعاد عن المواطن التي تشكل المجال الصحيح لبروز تلك القوى الكامنة في نفسه فأنه اولاً سيظل جاهلاً بوجود تلك القوى فيه، وان تلك القوى ثانياً ستخفت وتضعف وتضمحل حتى تزول في النهاية، فنحن نرى في حياتنا اليومية أناساً خاضوا تلك المواجهات الصعبة فصاروا قادرين على المواجهة بكل سهولة وظهرت منهم ابداعات ومواهب يتعجب منها أولئك الذي فضلوا اعتزال تلك المواجهات والمعتركات الصعبة، فكانت صعوبتها تزداد يوماً بعد آخر عليهم حتى اصبح مجرد التفكير فيها من المستحيلات. (الحيدري، ٢٠١٠م: ٢١٢)

فلو رجعنا إلى تاريخ الإسلام، ونظرنا في حال أُناس كثيرين كانوا مستضعفين في الجاهلية لا يردون ظلماً ولا يدفعون ضيماً، ثم أصبح شأنهم بالضد من ذلك إلى حد إنهم اصبحوا ابطالاً خلدهم التاريخ، فما هو شأن بلال في الجاهلية على سبيل المثال، إنه عبد مهان وذليل لا يستطيع أن يرفع

رأسه أو ينبس ببنت شفة امام سيده المستبد، ثم جاء الاسلام فزرع في نفسه غرس المقاومة ضد عوامل الهزيمة في نفسه، فتحول إلى رجل مغوار يصول ويجول بل يقتل سيده في معركة المسلمين الفاصلة، وصار مستعد المجابهة أبطال المعارك من مقربي الملوك والسادات واصحاب الحسين (عليه وعليهم السلام)، استطاعوا بما أبدوه من صبر لا مثيل له مع إمامهم المظلوم، أن يتحول أحدهم إلى أمة مختزلة في رجل، حتى الطفل منهم وحتى المرأة، وأي طفل كالاطفال الذين أبدوا صبراً وشجاعة منقطعة النظير مع الحسين (عليه السلام)، وايه المرأة كالسيدة زينب (عليها السلام) ومن معها من النساء في عاشوراء، وأية أُم ثاكلة بأربعة بنيها بينهم ذلك البطل أبوالفضل العباس (عليه السلام) كأُم البنين فاطمة بنت حزام (عليها السلام)، الصبر يمنح الإنسان قوة هائلة ترتقي به الى مصاف من يباهي به الله سبحانه الملائكة، حتى يصبح أحد الاعمدة التي يستند إليها عرش الله. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٥٥)

المبحث الثالث: الآثار الايجابية للصبر على المستوى الاجتماعي

إن للصبر على المستوى الإجتماعي آثاره الايجابية غير العادية أيضاً، فإن الشعوب التي تعرضت للمحن واجتازتها بجهود جبارة بقوة الصبر ستكون هي الشعوب الحية القادرة على صنع المفاصل المهمة في التاريخ بالتأكيد، أما الشعوب التي اترفت ومالت إلى الراحة فإنها لن تنتج شيئاً ذا بال في التاريخ، وسيكون شأنها شأن الشعوب المنقرضة بفرق واحد وهي انها على قيد الحياة الهزيلة التي لا تختلف في شيء عن الموت، ونحن نعجب بالتطور الحاصل في الغرب، وبالقوة التي عليها تلك الشعوب، ولكننا لا نسأل انفسنا سؤالاً مهماً، حول المراحل الصعبة والعسيرة التي اجتازتها تلك الشعوب حتى أصبحت بكل هذه القوة والمتعة على الرغم من ابتعادها عن خط الله، إن الله لم يقدم وعداً لشعب من الشعوب حتى لو كان معتنقاً للعقيدة الصحيحة، هذا غير صحيح بالمرة وهو مجرد وهم من الأوهام، ان التطور والقوة والمنعة هي نتيجة حتمية لكل شعب يثابر ويخوض المواجهات الصعبة على المستويات التنموية والاجتماعية والسياسية ببصيرة وصبر وثبات، وهذا هو المحك العام للشعوب التي تشاء ان تصبح شعوباً متطورة وقوية، نعم للإيمان قوة دفع هائلة نحو التطور شرط اقترانه بالجد والعمل والصبر والثبات في مواجهة الازمات، حصل هذا في التاريخ على يد النبي الاعظم (صلّى الله عليه وآله)، فلقد استطاع بقوة الايمان المصحوب بالصبر والثبات ان

يؤسس كياناً للاسلام يهزم اعظم الامبراطوريات خلال سنين قليلة، ثم استمرت تلك القوة بعد ان سيطرت حكومات الجور بإسم الاسلام في القرون القليلة التالية بدوافع اخرى هي دوافع الملك والهيمنة، مع استغلال الملوك المسلمين للعاطفة الايمانية القوية في نفوس الشعوب الاسلامية المضطهدة، ثم حصل التراجع بعد ان تلاشت قوة الصبر والثبات والعزيمة الراسخة على التقدم في نفوس المسلمين بفعل عوامل شتى منها ما يتعلق بالبنية السياسية الخاطئة التي ادارت الشأن الاسلامي، ومنها يتعلق بالخطأ في صياغة المفاهيم الدينية التي ادت إلى التواكل وفقدان الدافع للتغيير، إلى عوامل عديدة اخرى ليس هاهنا مجال للحديث عنها. (فضل الله، ٢٠٠٧م: ٧٠)

النصر والظفر بعد الثبات

لا شك ان الخبرة الحياتية للإنسان تبرهن له على ان أي مطلب من المطالب التي يتوخاها لا يمكن ان تحصيل له عبر طريق ممهد دون ان تعترضه العقبات، ولو فرضنا ان مطلباً ما أمكن ان يحصل للإنسان دون أن تعترضه تلك العقبات فإن امر زواله هين بأبسط ما يمكن ان يتهدده من الحوادث في المستقبل، ما لم يكن الإنسان قد تعود خلق الصبر والثبات في المواقف الصعبة والعسيرة، لقد كان ممكنا بالنسبة إلى الله عزوجل أن يهيء أسباب النصر للإسلام منذ البداية دون ان يمر النبي (صلّى الله عليه وآله) ومعه الصحابة الاوائل (رضي الله عنهم) بتلك المحن والاهوال، لكن حكمة الله سبحانه اقتضت ان لا يحصل النصر للإسلام الا بعد ان تتهيأ النفوس للتحلي بخلق الصبر والثبات في المواقف الصعبة التي تعرض لها المسلمون خلال ثلاثة وعشرين عاماً هي الفترة التي امتدت بها عمر الرسالة المحمدية حتى وفاة الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله)، كذلك يمكن القول عن المحن والابتلاءات التي تعرض لها المسلمون في الفترات التي اعقبت وفاة الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله)، خاصة في الفترة التي امتدت من بعد وفاة النبي إلى لحظة استشهاد الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، ثم المحن التي تعرض لها المسلمون ابان فترة وجود الحسن والحسين (عليها السلام)، ثم كان الامتحان الاكبر للمسلمين من خلال المحنة التي عاش تفاصيلها ابوعبدالله الحسين (عليه السلام)، لقد كان ممكنا بالنسبة إلى الله سبحانه ان يهيء اسباب النصر لاوليائه دون المرور بتلك الابتلاءات والامتحانات المتواصلة التي كلفتهم ان يعيشوا الرضا بكل تلك الصعوبات والمرارات التي عاشوها بالفعل حتى بلوغ النسبة العددية الاكبر

منهم مرحلة الاستشهاد، لقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) دائم الحث للمسلمين ابان صراعه عليه مع معسكر الاعداء على التحلي بهذا الخلق الالهي العظيم، ولو تصفحنا كتاب نهج البلاغة لوجدنا عدداً كبيراً جداً من العبادات الدالة على هذا المعنى، مع ذلك مثلاً: قوله (عليه السلام): «من ركب مركب الصبر إهتدى إلى ميدان النصر» وبالدلالة الالتزامية لهذه العبارة العلوية الشريفة ندرك ان من يركب من مركب الصبر لابد له ان يهتدي إلى ميدان النصر، اي ان الصبر شرط لازم من شروط النصر والظفر، ومع انعدام الصبر في المواقف الصعبة جميعها لا يوجد الا معنى الخسارة والاندحار والهزيمة بطبيعة الحال. (الحسني، : ٢٦٠)

تفنيد شبهة:

يقال: لو كان الظفر ملازماً للصبر كنتيجة طبيعية له لما شهدنا في التاريخ قديماً وحديثاً احداثاً لم ينتصر ابطالها على الرغم من إنهم كانوا المثل العلى في الصبر، فإذا كان الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله) قد تحققت غايته في انتصار الاسلام على الدين الجاهلي بالصبر، فإن النصر لم يكن حليف الحسين (عليه السلام) في معركة كربلاء، الم يقتل هو واخوته وابناء عمومته واصحابه ثم سبيت عياله ونساؤه ضمن فصول مأساة لم يشهد لها تاريخ الانبياء والأولياء الصالحين مثيلاً، فإين هي الملازمة المزعومة بين الصبر والظفر مع الالتفات إلى هذه الحقيقة، وفي الجواب على هذه الشبهة نقول: اننا يجب أن ننظر إلى الاحداث الحاصلة في التاريخ خاصة تلك المتعلقة بالانبياء والاولياء من زاوية الغاية التي استهدفت هؤلاء العظماء التوصل اليها، علينا ان ننظر اولاً إلى الحسين (عليه السلام) نفسه ماذا كان يستهدف من نهضته، فنحن نعرف ان الحسين (عليه السلام) لم يكن يستهدف الانتصار العسكري لانه يعلم انه غير ممكن، وعشرات الحوادث والروايات المروية عنه (عليه السلام) تؤكد ذلك، كان يستهدف عليه ان يصل إلى حالة ينتقص معها ضمير الامة الاسلامية على واقع ظالم محرف ينطق زوراً وبهتاناً بأسم الاسلام، لتكون نهضته اساساً لتفنيد كل المزاعم الضالة والمضلة في التاريخ إلى يوم القيامة، فالاسلام شيء، وظلم الطغاة الذين يحكمون بإسم الاسلام شيء آخر، هذا الفصل بين الحقيقيين المتغايرتين كان هو الهدف الاساسي لنهضة الامام الحسين (عليه السلام) والان نسأل: هل تحقق هذا الهدف ام لا، الواقع التاريخي كله يشهد ان هذا الهدف قد تحقق فعلا، فصاعاد من عاقل يستطيع ان يصمد في نقاشه دفاعاً عن

سيرة الطغاة من بني أُمية ليزعم إنها السيرة الاسلامية الصحيحة بسبب نهضة الامام الحسين (عليه السلام) ، وبهذا تكون الغاية قد تحققت بالكامل، ناهيك عن عشرات الغايات التي لا تتقاطع مع هذه الغاية بل تتضافر معها وقد حصل جميعها على يد الامام الحسين من خلال نهضته المباركة، وبذلك يكون الانتصار الحسيني قد تحقق بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، ان اكبر انتصار في التاريخ هو انتصار الامام الحسين (عليه السلام)، انه انتصار الدم الشهيد على جبروت امبراطورية سفيانية طغيانية كانت تتفوق في قوتها واتساعها على قوة واتساع الامبراطورية البيزنطية في ذلك الزمان، مع ان الانتصار الحسين ليس رهينا في زمان معين او مكان معين، انه حاضر في كل زمان ومكان، فلا يوجد شهيد قتل وسبي عياله ونساؤه وقتل اصحابه بالكامل يقاوم قبره الطغاة إلى هذه اللحظة مثل الحسين بن علي (عليه السلام) وهذا في غاية الوضوح. (اسد حيدر، ١٩٧٤م: ٤٦)

شيء آخر: ان بعض الاهداف الالهية العليا لا تتحقق ضمن السنة الالهية الا عبر مسيرة زمنية طويلة، فالله منذ ان خُلق الانسان انما استهدف من خلقه ان يمحض العبادة له وان لا يشرك به شيئاً وعلى هذا الاساس جعل اول الخلق نبياً، وهو آدم (عليه السلام)، ثم ارسل نوحاً في زمنه، ثم الانبياء من بعده الى الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله)، الا ان الواقع التاريخي يشهد على ان الانسان قد انحرف عن رسالة الانبياء، وكمثل واضح على ذلك قوم نوح (عليه السلام)، فلا يمكن ان يقال ان جهود نوح وصبره ذهبت هباء ولم تنتج الظفر المرجو منها، وكذلك بالنسبة إلى جهود ابراهيم وابنائه الانبياء إلى زمان موسى وعيسى عليهم السلام ان الهدف الالهي المتمثل برسالات جميع هؤلاء الانبياء (عليهم السلام) ليس شأنه ان يتحقق في زمان قصير، بل يتطلب مسيرة زمنية طويلة وجهوداً متراكمة من هؤلاء الانبياء (عليهم السلام) جميعاً، وهكذا فإن جهود الانبياء السابقين تكللت كلها بالنجاح ببعثة النبي الاعظم (صلّى الله عليه وآله)، ولم تتوقف المسيرة الالهية عند هذا الحد، بل تطلبت وجود الائمة (عليهم السلام) من بعده، وكان الامام الحسين واستشهاده هو الحلقة الاهم في هذه المسيرة، بحيث لم يكن ممكناً للغاية الالهية ان تحقق الا بوسيلة الحسين وبوسيلة استشهاده (عليه السلام) (الصدر، ١٤١٩هـ: ٦١٠).

علينا ان ننتبه إلى ان ثمة مفهوماً سلبياً للصبر أصبح رائجاً في المجتمعات الاسلامية عبر التاريخ

للأسف، بتأثير من النزعة الجبرية التي تشبع بها علم الكلام بتشجيع من سلاطين الجور، سواء من ملوك بني أمية أو ملوك بني العباس. (الشيرازي، ١٠٥٩هـ: ٢٠٣)

لما في هذه النزعة من قدرة على توفير الاجواء المناسبة لهيمنة هؤلاء الحكام، بحجة ان الله سبحانه قدر على العبد افعاله كلها، حتى اصبح فاقداً كليا للاختيار، هذه النزعة السلبية اورثت مفهوماً سلبياً للصبر عند الجماعة المسلمة، اذ يتوجب على الانسان في هذه الحالة ان يركن إلى الراحة والهدوء امام اي محنة تصاب بها الامة. فإذا ما ابتلى الله الامة بالحاكم الجائر مثلاً توجب عليها التسليم والطاعة التامة لهذا الحاكم والصبر على جميع المظالم التي يتسبب بها بحق الرعية المسلمة، والحق ان مثل هذه النزعة الجبرية المسلمة، والحق ان هذه النزعة تعرضت للكثير من النقد الذي انجزه علماء الاسلام على أتم ما يكون خصوصاً علماء المعتزلة والشيعة، بل شارك في هذا النقد بعض العلماء الاشاعرة أيضاً، ولم يعد مقبولاً للاعتقاد بها حتى في الوسط العلمائي الاشعري، الا ان هذه النزعة للاسف وجدت لها المناخ المناسب للانتشار بين عامة الناس، حتى بين الطبقات الشعبية البسيطة من اتباع المذاهب الاسلامية التي عرف عنها انها قاومت في علم كلامها هذه النزعة، فإن اغلب الناس من سواد الناس بين الشيعة يعتقدون علمياً بذلك، فضلاً عن الطبقات الشعبية من اتباع المذاهب الاشعرية المعروفة، فان كل من خاض نقاشاً مع مجموعة من الناس حول مفهوم الصبر وما يحمله من دلالات ايجابية وثورية في الاسلام، يصطدم بهذا الفهم السلبي للصبر في اذهان الناس، حتى انه سيكون مضطراً إلى ان يسوق عشرات الايات والاحاديث والروايات التي تثبت صحة رأيه دون ان يفلح في زعزعة القناعة الراسخة في اذهان الناس حول المعنى السلبي الذي يحملونه عن مفهوم الصبر، ويمكن ان يعزى السبب في ذلك إلى روحية الكسل وعدم ميل الناس إلى تحمل المسؤوليات الجسام تجاه انفسهم كأفراد وتجاه انفسهم كمجتمع، مضافا إلى حب الجاه والغرور والميل إلى التكاثر بالأموال والشهوات وغير ذلك من الصفات التي شدد القرآن على ضرورة تخلية الذات الفردية والاجتماعية منها. (الشيرازي، ٢٠١٠م: ٦٧)

المصادر:

القرآن الكريم

١. الاخلاق الاسلامية ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، (معاصر) ، دار احياء التراث ، بيروت .

لبنان ط (بلا تاريخ)

٢. أحياء علوم الدين، محمد بن محمد ابو حامد الغزالي ، (ت ٥٠٥ هـ) بيروت . لبنان، ط١، ١٩٧٩.

٣. اصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، (ت ٣٢٩هـ)، منشورات الفجر، بيروت . لبنان ، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧م.

٤. الأمام الصادق من المهد إلى اللحد ، محمد كاظم بن محمد ابراهيم القزويني، (ت١٤١٥ هـ)، دار الغدير ، قم المقدسة ، ط٢، ١٤٢٤ هـ.

٥. بحار الأنوار لدرر أخبار الائمة الاطهار ، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، (ت١١١١ هـ)، طبعة دار الوفاء ، بيروت . لبنان ، ٢٠٠٣.

٦. التربية الروحية ، السيد كمال محمد الحيدي (معاصر)، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت لبنان ط١، ٢٠١٠ م.

٧. تفسير القرآن الكريم محمد بن ابراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٩هـ) ، حققه: محمد جعفر شمس الدين ، دار التعارف للمطبوعات ، ط ١٩٩٨، ٢م

٨. تفسير وحي القرآن محمد حسين فضل الله (معاصر) دار الملاك ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٧.

٩. التفسير الكبير محمد بن عمر الفخر الرازي ، (ت ٦٠٦ هـ) دار الكتب العلمية بيروت . لبنان ، ط٣، ٢٠٠٤ م.

١٠. جامع السعادات، محمد مهدي ابن ابي ذر النراقي، (ت ١٢٠٩ هـ)، علق عليه محمد كلانتر، قم المقدسة . إيران . ط ٢٠٠٧ م.

١١. جامع الأخبار ، محمد بن محمد السبزواري (من اعلام القرن السابع الهجري)، تحقيق علاء ال جعفر ، مؤسسة أل البيت عليهم السلام لأحياء التراث ، ط١ ، ١٤١٤ هـ.

١٢. حب الذات وتأثيره في السلوك الإنساني ، محمد بن محمد صادق الصدر (قدس سره)، ت (١٤١٩هـ)، مؤسسة المنتظر لاحياء تراث آل الصدر ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣م.

١٣. حياة الامام الهادي ، باقر القريشي (ت ١٤٣٦هـ)، الناشر مؤسسة الامام الحسن (ع) دار المعروف، ط١٤٣٤، ١٠ هـ.

١٤. الروض النضير في تحرير اوجه الكتاب المنير ، محمد بن احمد المتولي (ت ١٣١٣ هـ)،

تحقيق ودراسة : خالد بن حسن ابو الجود ، دار السحابة للتراث بطنطا ، ط١، ١٤٢٧ هـ . ٢٠٠٦م.

١٥. زيد الشهيد ، عبد الرزاق بن محمد بن عباس الموسوي المقرم ، (ت ١٣٩١ هـ)، المكتبة الحيدرية ، قم المقدسة ، ط١، ١٤٢٧ هـ.

١٦. شرح نهج البلاغة ، عبد الحميد بن هؤة الله بن أبي الحديد ، (ت ٦٥٦ هـ) ، دار الكتاب العربي ، بغداد . العراق ، ١٤٢٦ هـ .

١٧. سيرة الائمة الاثنى عشر ، هاشم معروف الحسني ، منشورات الامام الرضا ، بيروت . لبنان ، ط١، (بلا تاريخ).

١٨. الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، اسماعيل بن حماد الجوهري ، (ت٣٩٣ هـ)، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٠م.

١٩. طريق النجاة ، محمد كريم خان ، مطبعة شركة الغدير البصرة . العراق.

٢٠. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، محمد بن ابي بكر بن ايوب ابن قيم الجوزية ، (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق : اسماعيل بن غازي مرحب، ط١، في مجمع الفقه الاسلامي جدة ، ١٤٢٩ هـ.

٢١. فقه الرضا ، علي بن بابويه القمي (ت ٣١٨ هـ)، مؤسسة ال البيت عليهم السلام لاحياء التراث قم المقدسة المشرفة، المؤتمر العالمي للامام الرضا . مشهد المقدسة ، ط١، ١٤٠٦ هـ.

٢٢. قرب الأسناد ، أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري (من اعلام القرن الثالث الهجري)، المحقق والناشر : مؤسسة ال البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، قم المقدسة ، ط١، ١٤١٣ هـ.

٢٣. كلمة أمير المؤمنين ، حسن بن محمد الشيرازي ، ت ١٩٧٠ م، مؤسسة المجتبى ، بيروت . لبنان ، ط ١٤٢٣ ،١هـ.

٢٤. كتاب الروح ، محمد بن ابي بكر ايوب ابن القيم الجوزية ، ت ٧٥١ هـ ، مجمع الفقه الاسلامي بجدة ، دار عالم الفوائد ، ط ١ ، ١٩٩٢.

٢٥. كونوا مع الصادقين ، مرتضى بن محمد الشيرازي (معاصر)، مؤسسة التقى ، بيروت . لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٠ م.

٢٦. لسان العرب ، محمد بن مكرم ابن منئور ، ت ٧١١ هـ ، دار صادر ، بيروت . لبنان ، ط ٢ ،

١٤١٤ هـ .

٢٧. معجم التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني ، (ت ٨١٦هـ)، تحقيق : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة (بلا تاريخ).

٢٨ . مفردات الفاظ القرآن ، الحسين بن المفضل الاصفهاني ، (ت ٥٦٥ هت) ، دار الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان ، ط ١ ، ١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠.

٢٩. مصباح الشريعة ، الامام جعفر بن محمد الصادق (ع)، (ت٢٤٨ هـ) مؤسسة المراقد المقدسة العالمية ، دار المتقين ، بيروت . لبنان ، ط١، ٢٠١٢ م.

٣٠. موسوعة الامام المهدي (عج)، اليوم الموعود ، محمد محمد صادق الصدر، (ت١٤١٩م)، مؤسسة دار الهادي ، ط١، قم المقدسة . ايران ١٤٢٦ هـ.

٣١. ميزان الحكمة، محمد بن علي اكبر الريشهري (معاصر)، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٣٢. نهج البلاغة للإمام علي بن ابي طالب (ع)، ت ٤٠ هـ، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: صبحي الصالح، دار الكتب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٤، ٢٠٠٤ م.

٣٣. نهضة الحسين، أسد حيدر ، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧٤ م.